صدمة الاشتغال ووعي الكتابة في رواية المحنة الجزائرية

– رواية سيدة المقام مرثيات اليوم الحزين لواسيني الأعرج -أنموذجا-

Working s shock and consciousness of writings in the Algerian crisis novel in waciny laraj s – Lady of Maqam, elegies for the sad day- a model.

مريم بن بعيبش *

تاريخ الإرسال: 2020/01/31	تاريخ القبول:2020/07/15	تاريخ النشر:2020/12/30

الملخص:

تعتبر رواية سيدة المقام لواسيني الأعرج من بواكير الأعمال الروائية التي أرّخت لبداية الأزمة واحتضنت العديد من السمات التجريبية والتقنيات السردية الجديدة، فقد تناولت مختلف التحولات التي مرّت بها الجزائر في الربع الأخير من القرن العشرين مركزة على أحداث أكتوبر 1988، التي تعتبر نقطة تحوّل مهمة دخلت فيها الجزائر ميدان التعددية، هذه الأخيرة التي مسّت كل القطاعات حتى حقل الكتابة الأدبية، هذا التعدد دفع الروائي إلى الوعي بكتابة روائية جديدة من شأنها استيعاب المجتمع الجديد بكل تناقضاته وموائماته، فلمسنا في الرواية موضوعات جديدة كانت منذ زمن غير بعيد من الممنوعات مثل (السياسة، الجنس، المرأة...) ومن أجل استيعاب هذه المواضيع استحدث الروائي تقنيات جديدة أدخلت الرواية في دهاليز التجديد والتجريب.

الكلمات المفتاحية: رواية المحنة، صدمة الاشتغال، وعي الكتابة، الأزمة، التجريب.

Abstract:

Wassiny laraj's novel "Lady of the Maqam" is one of the early works of fiction that dated the beginning of the crisis and embraced many experimental features and modern narrative techniques that innovates the traditional narrative style. In his work , he dealt with the various transformations that Algeria underwent in the last quarter of the twentieth century, but he focused on The events of October 1988, which is an

المؤلف المرسل:مريم بن بعيبش benbaibeche.merieme@gmail.com

*** جامعة جيجل benbaibeche.merieme@gmail.com**

important historical turn in which Algeria entered the field of pluralism, the latter that touched all sectors to the field of literary writing. This pluralism pushed the novelist to become aware of a new novel writing that would accommodate the new society with all its contradictions and adjustments. So we saw in the novel new topics that were not long ago Among the prohibitions such as politics, gender, women ... In order to accommodate these topics, the novelist developed new techniques that brought the novel into the corridors of innovation and experimentation.

***Key words**: crisis novel, consciousness of writings, workings shock*

*** *** ***

مقدمة:

الرواية الجزائرية جزء من المنظومة الثقافية العربية من جهة والعالمية من جهة أخرى، تتأثر بالعوامل المختلفة مما جعلها مرتبطة بالفكر الإيديولوجي، فقد امتدت في فترة وجيزة لتحتضن عدة اتجاهات كلها ملتصقة بالواقع، تحوم حوله وتلمس جوهر الحركة فيه، وهذا ما أدى إلى تفجير الطاقة الفنية لدى الكثير من المبدعين معلنة البداية الفعلية والحقيقية للرواية الجزائرية المعاصرة المكتوبة بالعربية في سبعينيات القرن الماضي، ويعود السبق في هذا الباب إلى رواية "ريح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة سنة 1971؛ إذ تعتبر هذه الرواية أول رواية جزائرية مكتوبة بالعربية ناضجة فنيا وأسلوبيا، ثم تلتها العديد من الكتابات الروائية التي كانت تصب في نهر واحد هو ملازمة الواقع وانعكساته، سواء على الصعيد الاجتماعي، السياسي، الاقتصادي والثقافي، إلّا أنّ هذه الرواية تميزت ببساطة في الطرح، فكانت مثالا حيا عن الرواية الكلاسيكية ذات الزمن الخطي والفضاء المكاني الواضح المعالم.

لتأتي مرحلة التسعينيات التي تعتبر تحولا جذريا في مسار الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية، فقد شهدت هذه المرحلة ظهور رواية جديدة وسط جيل جديد متحرر من قيود الرواية الكلاسيكية متبنيا تيارا جديدا نزع نحو التجريب بضرورة نحت شكل روائي عربي جديد، ذا رؤية فنية متنوعة وأساليب سردية مختلفة، مواكبا التطورات الحاصلة في مجال السرد من جهة والواقع الراهن من جهة أخرى، فانتقل على اثرها الخطاب الروائي إلى مساحة التعددية ليس فقط على مستوى المضمون أو الحدث، بل أيضا في طرائق السرد،

فراح هذا النص يعبر عن التحول الكبير الذي مس المجتمع الجزائري وطفت على السطح القضايا التي كانت منذ زمن غير بعيد من الممنوعات.

ويعد واسيني الأعرج من الروائيين اللذين كان لهم السبق في كتابة رواية جزائرية مغايرة تماما لما ألفه عالم الرواية سابقا، ذلك أن النص الروائي الجزائري في تسعينيات القرن الماضي عرف « تحولات مهمة بدت جلية في نمط اللغة وأشكال حضور الشخصية وطرق التعامل مع الزمن واستحضار التراث والانفتاح على التجارب القديمة والمعاصرة وتفكك البنية السردية التقليدية وفوضى الزمن وتشويشه وعنف اللغة واضطرابها وحضور الذات بأوهامها وهواجسها وانهيار الحقائق الكبرى والانفتاح على الأسئلة الشائكة ثم ارتياد المناطق المعتمة والهامشية في التاريخ والواقع»[1]، وهذا ما لمسناه في رواية سيدة المقام، إذ تقدم هذه الرواية في تفاعلها مع التاريخ قراءة نقدية تخترق الكتابات الرسمية وتنفذ إلى مواطن التأزّم لتسليط الضوء على المغيب والملتبس والمهمّش من خلال تقديم عالم روائي تميّز بالتجديد والتجريب من أجل استيعاب ذلك الصخب وتلك البربرية التي عرفها المجتمع الجزائري في تسعينيات القرن الماضي، كما تقدّم صورا ورموزا للتاريخ المظلم، حيث استطاعت أن تعبر عن كثير من القضايا والأفكار والتحولات التي أفرزتها أحداث أكتوبر 1988 وبعدها عشرية دموية.

النص الروائي الجزائري في هذه الفترة تغاير في اشتغاله المفتوح مع هويّات ووقائع زادت من حدة واقعيته، فهل سيتمكن من الإمساك بهذا الواقع في أشكال سردية جديدة؟ وكيف استطاع نص "سيدة المقام" لواسيني الأعرج أن يستوعب المحنة بكل تمفصلاتها؟

2. رواية المحنة بين الإبداع والاستعجال

1.2 خطاب الأزمة ووعي الكتابة:

تتباين أساليب التجريب من روائي إلى آخر، "فواسيني الأعرج" الذي يعتبر من أهم رواد التجريب الروائي في الجزائر، تتجه مغامرته التجريبية «لتفتح على أكثر من أفق كتابة في صياغة الموقف النقدي من الراهن الاجتماعي والسياسي في تحولاته المتأزمة التي وسمت مرحلة الجزائر المستقلة وفي بلورت رؤية الذات في علاقتها بالعالم حيث يكشف التجريب لديه عن جدلية المثاقفة، والتأصيل في ظل تداخل الأنساق التقليدية للسرد بالحداثة»[2].

وهكذا ارتبط التجريب الروائي بتشابك الحداثي مع التقليدي، واقتراب الحاضر من الماضي، وتداخل الواقعي بالمتخيل ليشكل بناء لغويًا متميزا ومختلفا.

وتقدم رواية "سيدة المقام مرثيات اليوم الحزين" لواسيني الأعرج في تفاعلها مع التاريخ، قراءة نقدية تخترق الكتابات الرسمية وتنفذ إلى مواطن التأزم لتسليط الضوء على المغيب والملتبس والمأزوم من خلال تقديم عالم روائي تميّز بالتجديد والتجريب من أجل استيعاب ذلك الصخب وتلك البربرية التي عرفها المجتمع الجزائري في تسعينيات القرن الماضي، كما تقدم صورًا ورموزًا للتاريخ المظلم سواء في الماضي أو الحاضر، حيث استطاعت أن تعبر عن كثير من القضايا والأفكار والتحولات التي أفرزت أحداث أكتوبر 1988 وبعدها عشرية دموية، فقد عرضت الرواية الكثير من النماذج الحية المعبّرة عن تحولات المجتمع الجزائري من جهة ومن جهة أخرى عبّرت عن تحولات الكتابة الروائية، كما طرحت العديد من القضايا الحساسة التي لا يمكن للقارئ أن يقف إزاءها موقف الحياد، وذلك في قالب فني روائي تاريخي يمتزج فيه الماضي بالحاضر، وهذا ما جعل الكتابة عن التاريخ في هذه الرواية هي التاريخ ذاته، حيث تناولت الحقيقة بوعي منهجي، من أجل إدانة خروقات المجتمع وتجاوزاته وصراعاته، وهذا الوعي اقتضى توظيف آليات جديدة لعل أهمها استثمار الوثيقة التاريخية والاشتغال على الذاكرة الجماعية والانفتاح على بعض الفنون.

وعليه فإنه إذا أردنا فهم المجتمع الجزائري في فترة المحنة علينا أن نقرأ الرواية الجزائرية باعتبارها أثرا تسجيليا لفترة تاريخية محددة خاصة بحركة اجتماعية وفق تيار وعي خاص.

2.2 حدود الإبداع بين القبض على اللحظة والحفاظ على جمالية النص الروائي:

تتميز رواية المحنة عمّا سبقها بتقديمها عالم متخيل يوحي بالتفكك وذلك عن طريق تقديمها للحقيقة في عنفها وتقديمها لشخصية تعاني التمزق والغربة. لقد اعتمد واسيني الأعرج في "سيدة المقام" شكلا جديدا، فقد استطاع خلق شخصيات تجسّد الوضع الاجتماعي للفترة التي يتناولها، حيث نجده أولى عناية كبيرة لشخصيات روايته سواءً على مستوى صفاتهم الشكلية أو الحالة النفسية، فعكست هذه الرواية هويّة المجتمع مسكونة بهواجس الموت والدمار، فتداخلت الشخوص والأحداث والتي غالبا ما تكتشف بفعل التذكر، حيث طغى الحقل الدلالي للذاكرة بشكل كبير، وهذا يدل على تفكك الشخصية

وضياعها في عوالم سماتها الضيق والانغلاق، حيث نجد بطلة الرواية "مريم" ترتد إلى الماضي فتستعيد بعض أجزائه مقارنة بين الأزمنة والأمكنة، حيث تقول وهي تتذكر مدينتها "سيدي بلعباس": "كانت مدهشة بناسها الطيبين بعشاقها، بمجانينها وعاقليها...اليوم كل شيء تصدأ بدأ الحقد يحفر ملامح الناس ويعرش كأغصان الخروب، كثر الوسخ والجريمة، ضاقت الشوارع والأبواب والنوافذ والمجاري والنفوس وعقول الناس"[3].

تعاطت الرواية موضوع العنف وأثاره على المجتمع، مما جعل الأديب يستسلم للكتابة التقريرية يرصد ويسجل ويطرح الأسئلة، فدوامة الصراع بين أقطاب السلطة بعد إلغاء الانتخابات التشريعية ديسمبر 1991 كان لها تأثيرات عديدة على مختلف الأصعدة، ومنها تأثيرها على الكتابة الأدبية فجاءت هذه الرواية لتعبّر عن محنة الوطن والشعب، إذ نجد الراوي في رواية "سيدة المقام" يستغرب من وضع البلد الذي تعمه الفوضى وكل مظاهر القبح والفساد عندما يقول: "من يدري البلد تسير نحو تفتت كبير خسرت ماضيها وحاضرها وهي الآن تسير نحو خسران مستقبلها"[4] ذلك أن "شيء ما كان يحدث من وراء الستارات الكثيفة، الجوع كان قد بدأ يزحف نحو البيوت الواطئة، أسواق النفط تنهار، مدن الملح تذوب، الكارتون يحترق بقوة، البطالة يزداد جوعها وستصل عما قريب إلى المليونين، أشياء كثير يحكمها خفاء غير مرئي وحزين"[5]، فالوطن كان "يباع ويشترى تحت الطاولات السرية، ربما كان العصر الأمريكي على الأبواب"[6]، إذن هذه الرواية بمضمونها الاجتماعي" تغوص بنا في أعماق العشرية السوداء، وهذا من أجل تعرية الواقع المأساوي الذي يعيشه المواطن الجزائري والإحساس المتناهي بمرارة العيش داخل جوهر الواقع المأزوم والمليء بالتناقضات والمفارقات المأساوية الصارخة"[7].

وبالتالي فالقول براهنية المحنة لا يحتاج إلى تأويل، ذلك أن الراهن كان دافعا إلى العجلة في الكتابة من اجل التنديد والصراخ في وجه العنف والصخب والبربرية لأن "خصوصية الواقع المضرم بالحرائق والفضاء المضرج بالدماء والأشلاء، لم تبق للكتاب فرصة التروي أو التملي فقد كانت المأساة من هول الحضور بما لم يدع مجالاً لكل ذلك"[8].

وحين نتحدث عن رواية المحنة فإننا ننصرف مباشرة إلى تعالق الكتابة في فترة التسعينيات بالراهن الجزائري المأساوي إلى أبعد الحدود، الراهن الصادم للعقل والحس والمنطق والقيم، وعليه يمكن القول أن الروائي الجزائري قد سارع إلى تأريخ هذه المأساة بأدبه بعيدًا عن السياسي حينا وحينا أخر يمزج الجمالي بالإيديولوجي، لتخرج إلى الواقع رواية تعالج

الراهن بطريقة جمالية "فقد كانت ويلات الإرهاب وأثرها على الأفراد والجماعات والقرى والمدن تمثل خلفية لمعظم الأحداث الروائية التي تلقفتها طازجة لتنسج من وحيها عالمها الروائي دون أن تتروى لبناء معادل تخيلي يتبع الأزمة منذ بداياتها التاريخية[9]، فأصبحت الرواية تتوغل في أعماق الحياة الاجتماعية المتعفنة مركزة على مأساة الذات والمجتمع، مما جعلها تقع في النقل الحرفي والتقريري للواقع، حيث جسدت هذه الرواية العلاقات الآلية بين الكاتب والواقع، وربما هذا ما جعل النقاد يصطلحون عليها مصطلح الأدب الاستعجالي littérature de l'urgence وهو المفهوم الذي رددته الأوساط الفرانكفونية[10]، بينما تفردت المقاربات العربية للظاهرة بإطلاق مفهوم أدب المحنة[11].

والحقيقة أن السبب وراء تسمية الأدب الاستعجالي في مقابل أدب المحنة، هو أن أدب التسعينيات عبارة عن ردود استعجالية، وأنَّ مصطلح الأدب الاستعجالي يحيل إلى "مسارعة الكتَّاب إلى التقاط صور الحرائق المشتعلة في البيت الجزائري، بما يجعل كل ممارسة كتابية غير متجهة رأسًا إلى التنديد بما يحصل مجرد لعبة لفظية رخيصة لا تساوي قيمتها حبرها"[12]، لأن الجرح العميق الذي أحدثته الأزمة في النفوس، ومحاولة الروائيون مساءلة الواقع والبحث عن الملابسات التي زجّت بالبلاد في غياهب الظلام والدماء "يجعل البحث عن المقومات الفنية سلوكًا ينم عن قلة الحياء إن صح القول"[13]، فويلات الإرهاب وأثرها على الراهن الجزائري عهدئذا مثّلت خلفية معظم الأحداث الروائية ولم تعط للروائي فرصة التروي "وإذا قدرت لأحدهم الرغبة في تجاوز الراهن الحداثي القريب وفتح فضاء السرد على عوالم متاخمة للراهن ومتعلقة به بضرب من التعلق، أثقل كاهل النص بخطابات مكشوفة في مساءلتها المعلنة للتاريخ والثقافة والهوية والوعي، تتخذ شكل المواعظ والتأملات السياسية والاجتماعية[14].

3. رواية سيدة المقام والتحولات:

1.3 تحولات الواقع/ العنف والعنف المضادة:

حاول واسني الأعرج في "سيدة المقام" محاورة الواقع من خلال تقديمه نصا يُجسِّد الواقع الراهن انطلاقا من مواقف إيديولوجية متباينة، لأن تمركز الرواية التسعينية حول هموم الجماعة لا يحيل إلى وحدة المعتقد وإنما يحيل إلى وحدة التجربة العامة للمجتمع، والمتمثلة في تجريب العنف كتجربة جوهرية، هذا العنف الذي يبدأ من عنف المشهد

والانفعالات إلى عنف التخييل إلى عنف اللغة، هذا التعدد الدال على تعالق رواية المحنة بالواقع الاجتماعي الذي أنتجها.

فنجد أنفسنا أمام نص روائي جزائري له طابعة الخاص يجمع بين خصوصية الكاتب من جهة وخصوصية المتلقي من جهة أخرى على اعتبار أن هناك إرثا مشتركًا بين المبدع والمتلقي يجعلهما يأخذان هذا الميراث في الحسبان، لذلك كان الراهن بمختلف مظاهر العنف التي يحتويها دافعًا إلى العجلة في الكتابة من أجل التنديد والصراخ في وجه البربرية من جهة ، لأن الكتابة في ذلك الظرف العصيب من التاريخ هي المجال الآمن الأكثر موائمة للتعبير عن المعيش تصرح بما لم يقل به عالم السياسة وتذيع ما لم يقل به علم الاجتماع وتنشر ما يخفيه عالم الاقتصاد ويحجبه[15]. ومن جهة أخر بمثابة المنعطف الحاد في طرائق الكتابة والأساليب السردي والتيمات المعالجة، ومن ثمة السمو بالنص الروائي إلى عالم آخر يتسم بالانفتاح والخروج من "حالة الإشباع التي وصلت إليها الرواية الجزائرية خلال عقدين من الزمن إلى نوع من الحوارية التي تشكل الانعطاف النوعي نحو إيجاد متخيل سردي متميز"[16] يمثل في قول الحقيقة بكل عنفها وجبروتها لتصبح رواية المحنة تتمفصل بين طيات الواقع ونياته وهذا عن طريق "اسطرة الواقع Mytification "[17].

حيث لمسنا في رواية "سيدة المقام" أشكالا لا متناهية من التقنيات الجديدة والآليات الفنية التي تساعد على بلورت شكل جديد وممارسة اللعبة الروائية قريبا من المتلقي، ذلك أن الأدب المغاربي اتجه "نحو تشييد خصوصية وبناء منطقه الخاص باستقلال عن باقي الخطابات وبرؤية جديدة للعلاقات الإيديولوجية بالواقع، وبانفتاح كبير على فضاءات الحلم والمدهش والساخر والعجيب واليومي والتراثي، وبالتشخيص الأدبي للتعدد اللغوي والأسلوبي الذي يخترق الفضاء المغاربي، كل ذلك بأفق تجريبي واضح"[18].

وعلى الرغم من اختلافات النصوص في طرحها للمواضيع، إلا أنها تشترك في موضوع واحد، هو أن هذا الصخب والبربرية والهمجية التي عرفتها الجزائر في تلك الفترة هي السبب في وعيهم بضرورة نحت شكل روائي جديدة يستطيع استيعاب مأساة الواقع، حيث وجد الكاتب – واسيني الأعرج- نفسه مجبرا على تجريب تقنيات جديدة، تستطيع أن تستوعب المضامين التي طرحها، وذلك عن طريق " استخدام تقنيات الكتابة الروائية من خلال اللغة الشعرية، وأسلوب تيار الوعي، والمونولوج الداخلي بهواجسه المختلفة والفلاش باك،

وتشظي الزمن نسق السرد المبني على تجارب العناصر، واستخدام الحبكة، واختبارات المكان وتوظيفه في إنتاج الدلالة والاهتمام بمحاور الشخصية»[19].

أعتبر موضوع العنف الحلقة الأساسية التي تدور حولها أحداث رواية "سيدة المقام" بكل أنواعه وحسب أبعاده وأسبابه، فنجد في الرواية " العنف الحكومي"[20] أو السياسي، وهو العنف الذي تمارسه السلطة على الشعب أو الجهة المعارضة لها، والعنف الاجتماعي، ومنه يصبح العنف ايديولوجية وفكر وطريقة حياة.

لذلك يحاول الروائي أن يضع نصا يتجاوز به أحداث العنف ليبدع عالما آخر أفضل يقوم على أنقاض العالم الذي نعيشه، فقد تدفق موضوع العنف من بداية الرواية إلى نهايتها، وشكّل مرجعا جماليا جعلها مختلفة، فنجد في الرواية العنف السياسي والاجتماعي والثقافي والنفسي، فإذا أخذنا العنوان الفرعي " مرثيات اليوم الحزين" نجد أنه يحيلنا إلى بداية مدارات الرعب والعنف في الجزائري، فكلمة "اليوم الحزين" إشارة رمزية إلى أحداث 8 أكتوبر 1988، وبداية الجزائر والروائي والبطلة التي اخترقت رصاصة طائشة رأسها « ستقولون رصاصة الجمعة 8 أكتوبر* من خريف 1988، رصاصة بلا معنى، كغيرها من الرصاصات الكثيرة التي اخترقت صمت المدينة في تلك الأيام[21].

كما نجد العنف في بداية الرواية من خلال فعل التكسير الذي يحيل إلى الدمار والرعب "شيء ما تكسر في هذه المدينة بعد أن سقط من علو شاهق"[22]، وكأن حالة الاستقرار التي عرفتها البلاد قبل ذلك الجمعة شيء من زجاج تكسر مع أحداث الشغب والعنف، كما تكسرت المؤسسات والأرواح البشرية، فقد طغى الموت على يوميات المواطن في تلك الفترة، كما نجده طغى على صفحات الرواية. ذلك أن النص الروائي هو الجنس الأدبي الأكثر التصاقا بالحياة الانسانية وتعبيرا عن قضاياها "والروائي الجزائري لم يشد عن هذه القاعدة، بل تماشى مع الواقع المأزوم والظرف الأمني المتشابك، فعلى وقع فداحة الخطب وبشاعته، سجلت الرواية الجزائرية مواكبة رائعة وجادة، وانصهر الروائي الجزائري بعمق ووعي مسؤولية في الأحداث الدموية التي صنعت المشهد السياسي الجزائري في لحظة تاريخية"[23]، حيث وجد "واسيني الأعرج" نفسه مجبرا على معالجة الواقع المأساوي في زمن أصبح فيه الموت قيمة حقيقة يجب النظر إليها، خاصة في بلد تتشظى فيه الروح الانسانية ويصبح الموت اجباري على المواطن الجزائري، حيث يتحول البلد من مكان للعيش والاستقرار إلى مكان للعنف و القهر، فنجده في الرواية لا يحفل بهندسية او

جغرافية، إنما يتشخص ليصبح ممارسا للعنف والقتل، كما يقدمه الروائي من منظور نفسي متأثرا بالأحداث "فلا نعثر على ذاك الشارع الذي قرأناه في الرواية الواقعية بطرقه ومحلاته وعماراته، إنه شارع يختزل في كلمة واحدة ذات دلالات نفسية، أو في عبارة موجزة تنقله إلى مستوى الرمز"[24]، فالراوي في الرواية رغم تحركه عبر شوارع العاصمة إلا انه لا يمر إلا بالشوارع الضيقة، فيقول: "أعبر الزقاق الضيق الوسخ المؤدي إلى ديدوش مراد"[25] "عندما قطعت الزقاق الضيق، كانت مجموعة من الكلاب تتناهش، تتنابح وتتبول"[26]، وترتبط هذه المحدوية واللانفتاح بالمكان والوطن من بداية الرواية حتى النهاية.

كما يتشخص الموت فيصبح متحركا يبحث عن شخص معين يلقي نفسه عليه، وهذا ما نلمسه في قول البطلة: "الموت كَايْنَا وتكون، ولكن هذا البلد الجميل يعود الآن بخطى حثيثة إلى القرون الوسطى، وحياتك الموت يدق على الأبواب، المسألة مسألة وقت"[27]، ليصبح بذلك الموت لصيقا بالإنسان، فالقتل أصبح شيئا عاديا في بلد "كل شيء يدعوا إلى الموت البطيء"[28]، كما أن العنف الذي تمارسه السلطة هو عنف منظم يعمل على إزالة المعارضة من جهة ومن جهة أخرى إلى نشر الرعب والخوف وسط المجتمع، لأن السلطة وقت الانقلابات والأزمات تعمل على إبادة الآخر حتى لو كلفها التخلي عن مبادئها "...الجيش في لحظة من اللحظات يصبح غير وطني، والجيش جيش وكفى عندما يؤمر ينفذ"[29].

لقد ارتبط الخطاب السياسي التاريخي بالخطاب الإيديولوجي في الرواية، فوجدنا الرواية قراءة مزدوجة لواقع سيطر عليه الموت والخوف، فنجد إدانة السلطة التي تعتبر المسبب الأول للعنف في التسعينيات، لذلك غَلَبَتْ القضايا السياسية والإيديولوجية على الرواية، وهذا "أمر طبيعي بحكم زخم قضايا الواقع وتعقد مشكلاته الفكرية والاجتماعية، بعد التحرر من احتلال غاشم، استمر مدة قرن ونصف قرن تقريبا"[30]، كما أنّ الروائي يحكي على فترة زامنها وعن تجربة عايشها، فوجدناه يطلق الأحكام على السلطة والواقع، تقول مريم "هذا قليل من كثير، القادم أفظع ستصل البلاد إلى حافة الانتحار، إننا نعود إلى القرون الوسطى، ويبدوا أننا عائدون لا محالة، حتى عندما يدخل الجيش فهو لا يحل مشكلة الجوع ولا العمل، يهدئ ثم يعود إلى ثكناته، ويعودون هم إلى عادتهم القديمة"[31].

وقد تجلى العنف في هذا المتن في صور عديدة، فمن عنف السلطة الذي يتمثل في القمع، ويتجلى هذا القمع أثناء رصد الراوي لتدخلات الأمن "شيء ما كان غامضا ولم يكن

مفهوما على الاطلاق وسط كل هذا الفضاء الموبوء لا نجد شرطيا واحدا، ما عدا قوات التدخل السريع التي أغلقت الساحات وسط المدينة. والنفق الجامعي، ومدخل ديدوش مراد وطوقت الساحات الكبرى، ساحة أول ماي، ساحة الشهداء، وبوابات البحر ... وفتحت على الجموع الممتدة القنابل المسيلة للدموع"[32]، إلى الاغتيال كنوع آخر يدين السلطة وأجهزتها، ليصل عنف السلطة إلى القتل، حيث تمارسه أجهزتها بأبشع الطرق، ويقدم "الطبيب" في الرواية شهادة تؤكد بشاعة الفعل الذي مارسته الدولة، يقول الطبيب: "سأقدم شهادتي أمام لجنة حقوق الإنسان المضادة للتعذيب، سأقول أنهم استعملوا الرصاص الانفجاري، إنهم منعونا من تسليم الجثث لذويها وأنهم أجبرونا على كتابة الأسماء على توابيت محشوة بالقطن والمفاصل الممزقة لأناس مجهولين"[33].

فنجد أن قول الطبيب فيه نوع من الحياد، والذي تجعله أقرب للقبول عند القارئ، حيث حاول الروائي أن يصف لنا بشاعة الموقف الذي وصلت إليه الجزائر لكن دون الوقوع في التقريرية التي لا مناص منها ونحن أمام نص يؤرخ لمحنة الجزائر، لذلك لا نجد اسم يحيل إلى السلطة، وهذا انطباع نلمسه في الرواية الجديدة، وهو تجنبها "التفصيل والتمثيل في حدثها عن فساد السلطة، مكتفية بالجمل تاركة التفصيل للقارئ ظنا منها أنه على دراية بالفساد الذي اتخذته موضوعا بما أنه مفضوح في الواقع يكفي المتلقي أن يفكك اللغة حتى يفهم، وملء الفراغات التي يخلفها النص، فيجدد، ويمثّل انطلاقا من موقعه، تحكمه ثقافته"[34].

2.3 تحولات اللغة/ لغة العنف – عنف اللغة:

لقد نزل الروائي باللغة من المستوى الشعري إلى المستوى البسيط، فزاوج بين العامية والفصحى في بناء روايته، لأن الواقع الجزائري المتفكك والمتشظي زمن المحنة استدعى بالضرورة لغة تقريرية بسيطة تستطيع أن تعبر عن هول الفاجعة التي حصلت للجزائر زمن الأزمة من صدام، وانقلاب، ضيع، غربة، تشتت، دماء وأشلاء.

حضرت العامية باعتبارها ملفوظا أخضعه الروائي لنوع من المراقبة والتفصيح، فنجدها محشوة وسط الفصحى، مما جعل كل منهما يجاور الآخر ويتفاعل معه، حيث يخصص الروائي لكل واقعة وحدث لفظ مناسب لها، ففي حديثه عن السلطة والإرهاب يستعمل معجم ألفاظ عامية (بني كلبون، أولاد الكلبة، أولاد الحرام، الطحانين، القتلة، الله يلعن

والديهم....)، فيقول الروائي على لسان "مريم": " يلعن بوه مدير، هذا رزق والديه حتى يتصرف فيه كما يريد"[35].

استطاع الروائي بأسلوبه أن يوهم القارئ بواقعية الأحداث الدموية لأن "قراءة اللوحة تقوم على تعلم العلامات البصرية التصويرية كما تقنِّنها الثقافة المعينة، وليس على نوع من التعريف التلقائي البدائي والثقافة هي التي تعطي دلالة لهذه العلامات"[36].

لتنتقل الرواية إلى مستوى آخر من العنف، إنه عنف المعارضة أو كما أسماهم الروائي "حراس النوايا"، حيث يتعرض لهم الروائي من خلال صفاتهم الباطنية والشكلية، ذلك أن الجماعة المتطرفة دائما تسعى إلى توحيد صورة أفرادها وترفض التميز والاختلاف داخل صفوفها، لذلك اهتم الروائي ببنيتها الشكلية مستخدما الوصف الدقيق، "القبعة الأفغانية ونعالة بومنتل والقشابية والمعطف الأمريكي من فوق...رائحة عطورهم القاسية والعنيفة تسبقهم عطر يشبه في قوته العطر الذي يسكب على جثث الموتى"[37].

فمن خلال العناصر التي تميزت بها الجماعة المتطرفة يركب الروائي صورة للعنف ودلالة واضحة، فقد تناول الموضوع من جانب واقعي، وذلك من خلال استيراد الثقافة الغربية من خلال ذكره " المعطف الأمريكي"، لأن هذا العنف ولدته هذه الثقافة تحت راية الإسلام الذي أصبح ذريعة يلجأ إليها الإنسان عندما يشعر بالاضطهاد وفقدان الثقة في السلطة الحاكمة، لا محال أنه يتحول من إنسان عاقل متزن إلى آخر همجي، ونتلمس هذا في الرواية من خلال شخصية "حمودة البسكري" فبعدما فقد حقه الشرعي مع زوجته "مريم" في ممارسة العلاقة الزوجية لجأ إلى العنف وأخذ من الدين ذريعة، ويصف لنا الروائي المشهد يبين لنا أن « الإنسان كلما أخفق في حياته، التجأ إلى ربّه يتعشَّقُه بكثير من النفاق»[38]، فتقول مريم: «...لحيته انسدلت، كانت سوداء مثل القطران، يختبئ داخل فوقيَّة(جلابية بيضاء، وقبعة أفغانية متسخة...»[39].

إن هذا الواقع كان دافعا قويا للكتابة، فقد مكّن الروائي من الوعي بضرورة كتابة نص أدبي يصوّر فيه تواطئ السلطة مع الجهة المضادة لطمس هوية البلاد والعباد بطريقة فنية أدبية اختلط فيها الواقعي بالمتخيل، ليعبر هذا الطرح عن إيديولوجية الروائي التي تظهر في النص من بدايته إلى نهايته، ذلك أن ما عاشه المثقف خلال تلك الفترة عبر عن هزيمة شاملة للأحداث، لان "فترة التسعينيات لحظة وجودية عميقة مكنت الروائيون الجزائريون من مواجهة الحقيقة الكبرى التي بإمكان أي روائي يدّعي صناعة مصائر الأبطال الذين

ولدوا من خياله السردي أن يمر بها في حياته، إنها حقيقة الذات وهي تواجه عالم اللحظة التاريخية المحموم في تسارع مجرياته المأساوية في طبيعة سيطرتها على الواقع كما تنسجه هذه اللحظة، وفي حضورها في السرد كما نسجه خيال الروائي وهو يعبر النفق التسعيني متقنعاً ببطله"[40].

3.3 تحولات الشخصية:

لقد جسد واسيني الأعرج في روايته المثقف المهمش الذي تجوع مرارة الويلات التي لحقت الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، فتجلّت في الرواية هموم المثقفين، ولاحظنا عبر تتبعنا للرواية أن المثقف المتمثل في شخصية الأستاذ ومريم هو مثقف مهووس بالفساد الذي طال نظام الحكم، فنلمس في كل خطابات الشخصيتين قلق وخوف من حالة البلاد، تقول مريم: "هذا قليل من كثير القادم أفظع، ستصل البلاد إلى حافة الانتحار"[41]، حيث يتحول المثقف من الممارسة المعرفية إلى الممارسة الفعلية، ذلك أنه "منتج الوعي من خلال قدرته على صياغة صورة نظرية عن موضوعات العالم الخارجي بما فيه، كا ذلك مع وعي كبير بهذا الواقع"[42].

وتجسدت شخصية المثقف في الرواية من خلال أرائه في القضايا المطروحة سواء السياسية أو الاجتماعية خاصة أرائه في العنف والتطرف، وهي أراء تدل على فكر الروائي، لذلك وجدنا تصريحات الراوي ومن خلفه الروائي تصف أزمته الشخصية أولا ثم أزمة الوطن بعدها. وبذلك برزت شخصية الراوي العليم بكل شيء، حيث بدا لنا اهتمامه بالأمور بالسياسية، فيعمل على إبراز أفكاره وأحكامه، وكشف الأمور المستورة، ذلك أن "المتكلم في الرواية هو إيديولوجيا بقدر أو بآخر وكلمته دائما هي قول إيديولوجي"[43]، وتسعى شخصية الأستاذ إلى إبراز الواقع الجزائري من خلال أدواره في الرواية، فهو الشخص المثقف الذي مثل الوطن في العديد من المناسبات الدولية، وهو الشخصية المنفعلة والرافضة للوضع المأساوي، حيث لمسنا في الرواية دعوة " الأستاذ" إلى الكتابة من أجل التخفيف من المأساة، يقول "إنه لا خيار لنا في هذا الوطن سوى الكتابة"[44]، وذلك من اجل التخفيف من حدة الأمر، وكذلك محاولة تعرية الواقع والكشف عن أسباب الأزمة، لأنه عندما "يصل الألم إلى منتهاه نفكر في شهوة الكتابة"[45]، كما أبرز لنا الروائي الخوف الذي كان يتعرض له بطله بحرية تامة ولغة تقريرية، فنجده يقول معبرا عن حزنه على حال المدينة التي بدأت معالمها

الحضارية تنقرض "يحزنني الحنين وتقلقني برودة الأماكن الصامتة وطقوس المدينة الجميلة التي تذهب ولا تعود"[46].

أما بطلة الرواية " مريم" فتحيل إلى العديد من الدلالات، منها المرأة الايجابية الطموحة المتحدية لظروف الحياة، التي سعت صوب هدفها وتصبح راقصة باليه عالمية، فقد كانت مريم "مصرة حتى الموت على حقها في الحياة، في الرقص، شيء من الطفولة يحكم كل حركاتها"[47]، فتمثل لنا "مريم ذات ايجابية، لكن سرعان ما تضيع هذه الذات في أزمة وجودية، فتشعر الشخصية بنوع من التشظي، لذلك تختار السفر عبر الزمن إلى ماضيها، لكن هذا الحنين إلى الماضي يصطدم بحقائق تجعل الشخصية في متاهة وفراغ واللانتماء.

هي إذن لحظات متناقضة وحاسمة رسمت للشخصية مسارها، مسارا مخالفا لأمانيها الأولى، لقد كان حلمها أن تهرب من واقع مرير وبؤس، حيث تقول: "كنت كغيري(...) أريد أن أهرب من هذا البؤس الذي يلاحقني"[48]، لتخرج البطلة من تجربة زواج فاشلة لتقع في فخ رصاصة طائشة، حيث يجتمع الفساد الثقافي والاجتماعي ليفقدا الشخصية قدرتها على البقاء ومواصلة الحياة، لذلك تحاول الخروج من هذا الوضع من خلال رفضها للآخر، فتتحول الشخصية إلى ذات متطرفة متعصبة ترفض الآخر وتنكره.

وبالتالي استطاعت شخصية "مريم" أن تقدم لنا الوضع الاجتماعي للمرأة فوجدنا المرأة الايجابية المتمردة، المتطرفة، المثقفة كما أنها نموذج دال على ما في الواقع من متناقضات، ذلك أن المرأة هي الوطن، الأم، الزوجة، الصديقة ووضعها الروائي هذا الموضع نظرا للتهميش الذي عرفته في هذه الفترة من قبل مجتمع ذكوري.

لقد جعل الروائي لكل شخصية دورا مختلفا عن شخصية أخرى وفي الوقت ذاته مكمل لها، فالشخصيات الرئيسية كثيرا ما كانت تعتمد على الشخصيات الثانوية من أجل انجاح دورها، وهي تقنية اعتمدتها الرواية الجديدة التي تهتم بالدور الذي تقدمه الشخصية في تفاعلها مع الحدث، حيث تساهم الشخصيات في تطور الأحداث وديناميتها، ومن ذلك شخصية "الشاب" الذي اخترق حائط الثكنة، هذه الشخصية إن كان دورها سريعا إلا أنها تركت أثرها في بناء نسيج الرواية الداخلي.

4. خاتمة:

لقد واكبت رواية "سيدة المقام مرثيات اليوم الحزين " تحولات الواقع الوطني الجزائري، والتزمت بطرح قضاياه وإشكالاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وقد ألقت هذه

التحولات بظلالها على النص الروائي وأثرت تأثيرا كبيرا وعميقا في الكتابة الروائية، ومن بين هده التأثيرات دخول الرواية في متاهة التجريب و آفاق التجديد، وما يمكن استخلاصه من خلال هدا البحث:

- استثمار الرواية للواقع الجزائري بمختلف تحولاته التي مر بها فترة التسعينيات، وتغذيها من العنف كموضوع رئيسي قامت عليه، بداية من عنف السلطة، ثم عنف المتطرف وأخيرا المجتمع.

- هيمنة إيديولوجيا الروائي على المتن وتحولت الرواية من خطاب أدبي إلى خطاب سياسي إيديولوجي، انطبقت عليه محاكمة التاريخ والواقع الرهين.

- تنوعت المواضيع التي تطرقت إليها الرواية، فانتقلت من معالجة قضايا الفلاح البسيط إلى معالجة قضايا المثقف كتيمة أساسية بالإضافة إلى المرأة والوطن، وكذا طرح القضايا المحرمة والطابوهات كعنف السلطة والجنس.

- أدت تعقيدات الواقع وإكراهاته المعقدة إلى تعقيد بناء النص وتقنياته، كأنسنة المكان والزمن، والترميز الذي أتاح للكتاب الحرية في التعبير.

- تشتغل الرواية في استعادتها للماضي على الذاكرة من خلال استرجاع الأبطال للماضي البعيد كاسترجاع الأبطال من خلال زمن الطفولة، أو الماضي القريب كأحداث أكتوبر 1988، وتهدف هده الاسترجاعات -لهذا الماضي- إلى إبراز عمق التحول والتغير الذي طرأ على الوطن والمواطن فتتماهى سيرة الذات مع سيرة الوطن.

- ركزت الرواية على المثقف فجاءت أغلب شخصياتها مثقفة(الراوي، مريم، أناطوليا...)، واستخلاص نموذجين من المثقف، مثقف إيجابي تمثله "مريم"، وآخر سلبي يمثله" الأستاذ".

- وجدنا كل الشخصيات تعاني الاغتراب، مما أدى إلى النهاية المأساوية لمختلف شخصيات الرواية، فمريم استسلمت للموت والأستاذ فضل الانتحار .

- اشتغلت الرواية على اللغة الشعرية المشبعة بمعاني الألم، إلا أنها سقطت في بحر التقريرية والاستعجالية في بعض الأحيان.

5. الهوامش:

1- بهاء الدين محمد مزيد ، النزعة الإنسانية في الرواية العربية وبناء جنسها، العلم والإيمان للنشروالتوزيع ط1، مصر، 2007/ 2008، ص 13 .

2-. لطيفة قرور، هاجس الراهن في ثلاثية الطاهروطار، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستيرفي الأدب الجزائري المعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010/2009، ص 07.

3 - واسيني الأعرج، سيدة المقام مرثيات اليوم الحزين، منشورات الفضاء الحر، ط1، الجزائر، 2001، ص 93.

.4 - المصدرنفسه، ص46

5- المصدرنفسه، ص46.

6 - المصدرنفسه، ص75.

7- داود محمد، الأدباء الشباب والعنف في الوقت الراهن، مجلة انسانيات، وهران/ الجزائر، العدد 10، 2000، ص 32.

8- عبد الله شطاح، مدارات الرعب فضاء العنف في رواية العشرية السوداء، مطبعة ألف، الجزائر، 2014، ص144.

9- المرجع نفسه، ص144.

10- ينظر: عبد الله شطاح، مدارات الرعب وفضاء العنف، ص 141، نقلا عن Rachid Mokhtari: la grafie de l houreur (essai sur algerienne (1990-2000), ed chihab, alger, 2002.

11- ينظر: المرجع نفسه، ص 141.

12- المرجع نفسه، ص 142.

13-المرجع نفسه، ص 142.

14- المرجع نفسه، ص 144.

15- ينظر: المرجع نفسه، ص 144.

16- أمنة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دارالأمل للطباعة والنشروالتوزيع، تيزي وز، الجزائر، ص 77.

17- حسين خمري، فضاء المتخيل، مقاربات في الرواية، منشورات الاختلاف ط1، الجزائر، 2002، ص 190.

18 - علي سحنون، احسن فايد، أبحاث في الرواية ونظرية السرد، طكسيج للنشروالتوزيع، الجزائر، 2014، ص21.

19 - شوقي بدريوسف، حداثة السرد في الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة الرواية قضايا و أفاق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع 10، 2012، ص36.

20- الشريف حبيلة ، الرواية والعنف دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2009، ص11.

21 - سيدة المقام، ص06.

22- المصدرنفسه، 05.

23- عقيلة قرور، الذات الجزائرية واشكالية الراهن، المأساة الوطنية في المتن الروائي الجزائري- نماذج من روايات المجنة-، أعمال الملتقى الوطني الثاني في الأدب الجزائري بين خطاب الأزمة ووعي الكتابة، المركز الجامعي بالوادي ، يومي 16/17 مارس 2009، الجزائر، ص 263.

* للإشارة فإن يوم الجمعة صادف 7 أكتوبر وليس 8 مثلما هو موجود في الرواية،

24- شريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 38.

25- سيدة المقام، ص20.

26- المصدر نفسه، ص123.

27 - المصدر السابق، ص99.

28- المصدر نفسه، ص43.

29 - المصدر نفسه، ص148.

30 - طه الوادي، الرواية السياسية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، مصر، 2003، ص 185.

31 - سيدة المقام، ص245.

32 - سيدة المقام، ص245.

33 - المصدر السابق، ص 40.

34- شريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 167.

35- سيدة المقام، ص 208.

36- سيزا قاسم، القارئ والنص، العلامة والدلالة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2002، ص 212.

37 - سيدة المقام، ص11.

- المصدر نفسه، ص11938

39- المصدر نفسه، ص119.

40 - عبد القادر رابحي، ايديولوجيا الرواية والكسر التاريخي، منشورات الوطن اليوم، سطيف، الجزائر، 2016، ص 13

41- سيدة المقام، ص245.

42- احمد صديقي الدجاني وآخرون، المثقف العربي همومه وعطاؤه، إعداد مركز الدراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 2000، ص107.

43- طه الوادي، الرواية السياسية، ص 06.

44 - سيدة المقام، ص77.

45 - المصدر نفسه، ص231.

46 - المصدر نفسه ، ص 214.

47 - المصدر نفسه، ص 59.

- المصدر نفسه، ص101[48]

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊